مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية ثقافية تصدر سنوياً

العدد الثانى

1985

- من قضايا الفكر والعقيدة
- مذاهب بلا إسلام
- معارف إسلامية
- مخطوطات ليبية
- دور الفكر الواقعى فى النهضة الإسلامية

من قاعة المحاضرات :

حضارة التصنيع وتأثيرها على السلوك الإنساني الإسلامي

• الدكتورة فاطمة الجامعي •

«أيها الاخوة الأفاضل ، إن موضوع الحديث الذى يجمعنا فى هذه الجلسة هو بعض المشكلات او القضايا التى جدت على المجتمع الاسلامى من تأثير حضارة التصنيع ، وبهذا الطرح نجد أن هناك ثلاثة عناصر :

العنصر الاول :

محدد مكانيا وهو البيئة الاسلامية المجتمع الذى يخضع لدين الاسلام او الذى اختار وتبنى الاسلام ديناً ونظاما .

والعنصر الثانى :

هو حضارة التصنيع بوصفها نبتت فى غير بيئة اسلامية .

والعنصر الثالث :

العلاقة بين الطرف الاول والطرف الثانى وهى علاقة طبعا بقدر ما فيها من فائدة كذلك فيها مساوىء ومضار ، لكنى سوف لا اقف عند بعض ايجابيات القضية لأن الطرف الايجابى غالبا ما يقع فيه الاختلاف وانما يقع كل الاختلاف او يقع كل الثقل بالنسبة للطرف السلبى من علاقة الفاعلية الاولية ... هذا ما أود أن نتحاور فيه معا ونتبادل فيه الرأى .

إن المجتمع الاسلامى امة والأمة ، اية امة ، هى نظام يخضع لقوانين معينة سواء كانت امة اسلامية او غير اسلامية ، الغرض الاساسى بين جماعة من الافراد فى زمان ومكان معين يخضع لنظام ، وهذا النظام هو ما ينتج عنه بناء الامة ، تفرض احكامه واستمرارية قوانيه ، اما ان يضعها الانسان وإما ان تاتى من السماء والمفروض من اى نظام من هذه الأنظمة ان يضمن المصلحة العامة والخاصة لكل فرد من الأفراد والجماعة المنضوية تحتها .. لكن أظهرت التجارب سواء فيها تجارب الامم التى سبقت الاسلام او التى جاءت بعده وحتى فى عالمنا المعاصر ، ان جميع الانظمة على اختلاف انواعها ، مهما سعت وبذلت من الجهد لتوفير تلك المصالح ، انظمة تطغى فيها مصلحة جماعة على جماعات اخرى ، وذلك فى نظرنا لأنها انظمة يضع قوانينها بشر فى اطار زمان ومكان معين وعلى ضوء الاوضاع السياسية والاقتصادية للدول والأمم المعايشة لها ، وحين نضع نظاما نضعه لا لنعالج قضايانا فى انعزال عن العالم المعاصر أو الدول الأخرى ، وانما نضعه فى تواجد مع طرف آخر الذى هو مجموعة الدول والأمم الاخرى ، وطبعا ان المزاحمة الدولية لعنصر ليس اقل خطورة من عنصر الذاتية الذى لا يلبث ان يتجلى فى سن تلك القوانين مهما طال عليها الزمن . اما النظام الذى جاء به الاسلام لبناء الامة ، فنظام اثبت نجاحه فى فترة ما وذلك لانه نظام يقوم على تعاليم واحكام الخالق ، وضع فيها مصلحة المخلوقين وحدهم وهو خبير بعباده وليس له فى ذلك اية مصلحة ، فالذات الالهية منزهة عن ان تكون لها مصلحة خاصة بها ، والبشر فى نظام الاسلام سواء ، متى ارتضوا اعتناق هذا الدين لانه جاء للناس كافة لا للبيض ولا للحمر ولا للسود وانما للناس كافة .

كانت كل الانظمة التى هى غير الاسلام انظمة تخطط لمجموعة من الافراد اصطلحت على سن قوانين والخضوع اليها ملتزمة فى ذلك بتنظيمها لكن سرعان ما تعيد النظر فيها لتجدد معطيات سياسية واقتصادية اخرى .... ليست انظمة قادرة وليست فيها المصلحة مطلقا لمصلحة الافراد والجماعات بل هى لمصلحة افراد دون افراد وجماعات دون جماعات ، ولهذا يجب ان تتبدل وتتغير فى كل وقت . ومن هنا كان الاسلام دين الشمولية لا يأتى عليه البلى ولا تزعزعه هزات الحضارة ازدهارا او انهيارا .

إن التربية الروحية بالنسبة للامة هى كالروح بالنسبة للجسد يصبح الجسد جثة كريهة اذا ما فارقته الروح تنهشه الحيوانات ، كذلك الامة تصبح ضعيفة امام كل التيارات لا قوة لها تصارع بها كل ما يسىء الى بنائها ومتى ذهبت القوة الداخلية الروحية اصبحت كالورقة فى مهب الريح تدحرجها القوة المسيطرة عليها ، فإذا كانت الأنظمة تراعى وتحاول العمل على تطبيق القوانين التى يقوم عليها هذا النظام فإن كل مسؤول مراقب ، مهما كانت درجة مراقبته تعجز على الممارسة الفعلية للسهر على جميع الجزئيات .. الرقيب يغيب ، الرقيب يخدع ، الرقيب ينهار أمام قوة ما مادية اقتصادية جنسية ، الرقيب الانسانى يفشل احيانا .. لكن تبقى مراقبة الله ومراقبة الضمير الذى هو مظهر من مظاهر التربية الروحية ، هى القوى للسهر على تحقيق كل ما يضمن تطبيق القوانين وقيام مجتمع صالح .. هذا كمدخل لمفهوم الامة حسبما تخطط له الشريعة الاسلامية . تخطيط سماوى اعلى من مصلحة فئة دون فئة اخرى ، استطاعت الامة الاسلامية ان تقبض على زمام دينها ، على زمام كيانها على زمام اخلاقياتها امام تحديات العصر .. هذا السؤال يطرح نفسه بنفسه ... الاسلام كمجموعة احكام وعبادات ومعاملات ينظم علاقة الانسان بخالقه من جهة ، وعلاقة الانسان بالعالم الذى يعيش فيه من جهة أخرى .. يبقى ان نستنتج : ـ

ان الشعوب فى فترة التحرر من الاستعمار خصوصا شعوب العالم الثالث عامة والشعوب الاسلامية خاصة خاضت معارك ضد الاستعمار تحت ظل العقيدة الاسلامية بالاضافة الى ظل الوطنية ، كان الاسلام اولا هو العنصر الذى تلتجىء اليه جميع الطبقات المختلفة لخوض معركة الاستقلال لخوض معركة الاطاحة بالقوى المستعمرة ، يسود افراد هذه الأمة التفاهم والتضامن من أجل قضية آمنت بها فافتدت بها النفس والنفيس اعطوا دماءهم وارواحهم فى سبيل تحرير اوطانهم وازدادت تشبثاً بتعاليم دينها واجدة فيه السند القوى والعتاد الذى لا تضاهيه دبابات المستعمر ولا قنابله ، كانت الروح قوية دفعت بالمسلمين الى الجهاد دفاعا عن مواطنيهم واراضيهم وعقيدتهم فكتب لهم بذلك الفوز المبين .. هل تلك الروح التى صاحبت هذه الفترة فى الكفاح استمرت بعد ان حصلت الدول الاسلامية على استقلالها السياسى ؟ هل تلك الشحنة الدينية القوية التى دفعت بالشباب والكهول والرجال الى خوض معركة الدفاع ضد الاستعمار مضت بنا حتى بعد حصولنا على استقلالنا السياسى ؟ هذا السؤال الاول والسؤال الثانى هل ما يعرفه العالم الاسلامى المعاصر من مشاكل مجتمعية وسلوكية وليدة الاستقلال ام سابقة على مرحلة الاستقلال ؟ السؤال الثالث ما مجموعة هذه المشاكل ؟ وهل يمكن الحد من خطورتها ان لم يكن هناك أمل فى تفاديها ؟

عن السؤال الاول لا اتردد فى ان اجيب : ويا للأسف ان الروح التى صحبت المناضلين ايام الدفاع ضد الاستعمار لتحرير اراضيهم بدأت تقل بمجرد حصول المسلمين او بعض الدول الاسلامية على استقلالها ولو كانت تلك الروح استمرت لما وجدت المشاكل بشتى أصنافها مرتعا لتنمو وتترعرع ، ولعل ذلك يرجع اساساً الى ان ابناء جيل النضال ماتوا شهداء ومنهم من استكان الى نشوة الانتصار فأنساه التشوق الى مناصب عليا فى ادارة شؤن الدولة المستقلة ، انساه هذا التشوق والنشوة مبادىء اتخذها شعاراً ابان الثورة ضد الاستعمار ، وفئة أخرى كانت لها وجهة نظر تقوم على اتجاهات دخيلة منفصلة عن مجتمعاتها فى تنظيم البناء السياسى الجديد والقضاء على التخلف الاقتصادى وقلة قليلة هى من ينادى بصدق ، بالسهر على تطبيق مبادىء الاسلام ورعايته بين افراد الامة قولا وعملا ، ولهذه التشكيلات يعزى جانب من القصور فى بث الروح المعهودة فى الجيل اللاحق للاستقلال ، قد يمكن ان نقول ان بعض الدول الاسلامية شهدت انتفاضات على شكل ثورات او على شكل تعبئات جديدة لاحراز ما تبقى من بعض اجزائها المغتصبة او لظروف معينة خاصة ، واستطاعت هذه الشحنة ان تستيقظ من جديد وان تجد لها منفذا الى أجيال صاعدة اما فى جل الدول الاسلامية فليس هناك شيء محدد لاندفاع الشحنة فى شباب الجيل المعاصر .

بالنسبة للسؤال الثانى ، المشاكل المترتبة عن حضارة التصنيع فى العالم الاسلامى ، اقول ليست وليدة الاستقلال بل نبتت هذه المشاكل منذ ان خططت الدول المصنعة سياساتها فى اتخاذ مستعمرات لترويج صناعاتها فى البلدان المستعمرة واستغلال موادها الخام ، اعنى منذ بداية التصنيع توجهت الانظار نحو المناطق التى لها مواد خام وبدأ التسابق ، وقد احدث الاستعمار فى الاقطار التى دخلها ثورة جذرية كانت منطلقاتها معطيات صنع الحديد ، حينما دخل الاستعمار الى اقطارنا صحبته بعض اوجه مستحدثات التصنيع فى بلدانهم جاءوا بها الى بلداننا ، على سبيل المثال خطوط الكهرباء ، الطباعة ، السيارة ، القطار ، الطائرة الخ وكان لهذا النوع من الغزو من مستحدثات التصنيع ردود فعل مختلفة ، طائفة رفضت هذا الغزو الجديد والذين كانوا يرون ان التصنيع كارثة وانه لم يكن من عاداتنا ولا من تقاليدنا وانه بدعة وكل بدعة يجب ان تحارب لانها ضلال . مقابل هذه الطائفة طائفة اخرى شغفت بهذه الصناعة فأخذت تؤله اصحاب التصنيع تراهم السادة والاسياد وتراهم منقذا من مشاكل الاعمال اليدوية ، وبقدر ما يزداد شغف هذه الفئة الثانية بقدر ما يزداد تعنت الطائفة المتحجرة ضد الصناعة ، هكذا بدأ الصراع بين الطائفتين يزحزح من كيان المجتمع الاسلامى ، ويسمى صراع الأجيال ... صراع الطبقات صراع كذا ، وبدأ المتطرفون من الفريق الاول يرمون بالكفر والالحاد افراد الفريق الثانى ... ولولا جهود طائفة من

المصلحين لكاد الامر يستفحل اكثر . وتجلت آثار هذا الصراع فى الميدان الثقافى والمكتسبات الفكرية ومن الذى يزداد ربحا فى هذه المعركة بين الطائفتين ؟ طبعا المستعمر هو الذى يصفق ... هذه هى المشاكل التى افرزتها المرحلة الاولى من دخول التصنيع فى البلاد الاسلامية ، ثم تأتى مرحلة ما بعد الاستقلال فتطرح مشاكل متعددة ذات صبغات بالاختيارات التى صاحبت هذه المرحلة الجديدة حيث اختلفت هذه الاختيارات من قطر الى قطر ، قطر اشتغل بالفلاحة ، وقطر بالتصنيع وقطر لا شىء اعنى الركود ،

وعندما حققت الشعوب استقلالها السياسى أخذت تؤكد أملها فى التجديد ورغبتها فى أن تلحق بالبلدان المصنعة ، لقد وعت هذه الدول الاسلامية أو بعضها عى الاقل أن الحضارة المعاصرة حضارة تصنيع وهى وان كانت من مصدر غربى غريبة عنها لا مناص لها من اقتنائها ، وطبعا سوف لا نظل نعيش فى الغاب أو فيما وراء الحضارة ، لا بل لم يكن ليخيفنا ذلك ولا نقلل من شأن هذه الحضارة ، لقد أيقنت بأن الخروج من التخلف وتحقيق النمو الاقتصادى رهين بمدى تبنى تلك التقنيات .. كلما توصلنا الى تقنيات كلما خرجنا من التخلف ، وأصبح المسئولون ببعض هذه الدول يرون أنه لايمكن تحقيق رغبتهم فى بلوغ مستوى حياة أفضل ولا ارساء قدرات سياسية الا اذا تبنوا بدورهم مكتسبات العالم المعاصر ، وبالتالى تبنت جل البلدان الاسلامية سياسة الدعاية للمكتسبات الصناعية ، سياسة ترمى الى تجنيد الجماهير حتى تحس بنفس الرغبة فى تبنى معطيات حضارة التصنيع ، من هنا الاشهار فى كل الوسائل المرئية والمسموعة والمكتوبة للمخترعات الحديثة تعبئة للجماهير حتى يقبلوا على اقتناء المكتسبات الصناعية واصبح الجميع أشد حرصا لأن يلج عصر التصنيع دون انتباه ، دون تريث دون استعداد مسبق وبأى ثمن يجب أن ندخل عصر التصنيع فكانت نتيجة هذا التسرع فى كثير من الاقطار تدهور الصناعات المحلية ، دخول عصر الصناعات الحديثة نشأ عنه موت أو انحطاط أو على الاقل تدهور الصناعات المحلية من جهة ، ثانيا نشأ عنه اجتثاث الروابط بين الارض والفلاح ، ترفع الفلاح عن خدمة الارض ورأينا الهجرات من القرى والأرياف الى المدن لأن المدن تتوفر فيها المدارس ، تتوفر فيها السينما ، تتوفر فيها كذا وكذا لكن المدينة لم تستوعب هذه الهجرات ليس لها الطاقة السكانية لاستيعابها بها ،

فماذا نتج ؟ نتجت دور الصفيح ، اكواخ الصفيح على أطراف المدن ، وفى اكواخ الصفيح لايعيشون الحياة البدوية ولا الحياة القروية بل حياة حيوانية ، عفونة واوساخ ، .. الخ . وبالنسبة للمدن ماذا حدث ؟ على مستوى المدن لم يعد نمط العيش الخاص بالمدن الاسلامية يهدى الاجيال المعاصرة الى التطور بل يقف حجر عثرة دون التطور ، هذا هو المشكل .

لكن اذا كنا نعلم ان الحضارة حضارة التصنيع ، حضارة مادية محضة ، حضارة لاتعتمد على رؤى دينية ولا اخلاقيـة او على الاقـل حضارة منسلخـة عن الروحيات والاخلاقيات وطبعا هناك جوانب فكرية وجوانب اخلاقية لدى فئة لاتذكرها الابكل خير انما العموم حضارة التصنيع حضارة مادية ترعرعت فى ظل انظمة سياسية غربية تفصل بين عالمين تعتبرهما متباعدين عالم الروح والعبادات الدينية من جهة وعالم دنيوى أو مادى من جهة أخرى ، واذا كنا نعلم مايعانيه الغرب من أزمات ، اذا كنا نعلم ما يعانيه هؤلاء فى ديارهم المصنعة ، اذا كنا نعلم مايعانـون من أزمات تلونت بتلون الاحـوال الاقتصادية والسياسية ، اذا كنا نعلم ذلك ، أصبح من السهل أن نتلمس ماتعانى من انعكاسات تلك الاوضاع على الاوساط الاسلامية .. أى ستصبح الاوساط الاسلامية أو المجتمعات الاسلامية كمرآة تعكس مشاكل الغير حقا . لاشك ان لحضارة التصنيـع ايجابيات جمة كالمخترعات فى مجال الطب مثلا كاللايزر .. الخ .. وغيره من مكتسبات انسانية ضخمة .. لكن هل استطاعت الدول الاسلامية كمستهلكة لمعطيات التصنيع لامساهمة فيه ، أن تستفيد من تلك الايجابيات بالقدر الذى يخفف من وطأة السلبيات ؟ طبعا لا لم تستطع بل انحصرت مواجهتنا لهذه الحضارة فى دور المستهلك الذى القى بنا فى دور التبعية للدول المصنعة ، أصبحنا فى تبعية متزايدة أخطر من التبعية التى عشناها أو عاشتها الدول الاسلامية كدول مستعمرة فى تبعية جديدة لماذا ؟ كان وضعها وضع الدول الاسلامية وهى تزأر تحت نير الاستعمار وضع قهر واغتصاب هذا فى الماضى فكان هذا الوضع حافزا للتشبث بالاسلام للثورة ضد المستعمر ، أما وضعنا اليوم ، وضعنا فى تبعيتنا للغرب والدول المصنعة ناتج عن انسياق باختيار مسبق وبتخطيط وباقتناع ، ليس وضع قهر تماما ولكن وضع نخطط له ونبرمج له وعن اختيار .. لا أمل اذن فى أن يوجد لدى هذه الدول من جديد محرك يفضى فى النهاية الى صالحنا اذا كان هناك محرك للتحرر من الاستعمـار السياسى فيمـا مضى فهل هنـاك محرك اليـوم للتحرر من الاستعمـار الاقتصادى والفكرى والثقافى واللغوى إن الدول المصنعة من ناحية اخرى تجد فى وضعها الجديد ليست مستعمرة مباشرة انها تجد فى وضعها الجديد اكبر تعويض عن ايام الاستعمار ، تجد أسواقا رابحة اكثر من ذى قبل . انها حلقة مفرغة تـدور فيها سياسات دول العالم الاسلامى بما فيها الدول التى نهجت لنفسها سياسة التصنيع وأعطتها الاولية ، إن الدول الاسلامية أو الدول العربية التى اختارت التصنيـع بعد الاستقلال هل نجحت فى سياستها ؟ علامة استفهام . بالرغم من موقعها الجغرافى أعتقد انها لم تنجح مائة فى المائة لان ذلك كان على حساب الانتاج الزراعى ، كان ذلك على حساب الانتاج الفلاحى الذى كان يدر من المحاصيل مايوفر الاستهـلاك ويزيـد عن الاستهلاك المحلى ، أما اليوم فلاتسد الحاجيات الداخلية اكبر الدول الفلاحية التى كانت تصدر فيما مضى أصبحت اليوم من اكبر الدول المستوردة للقمح وللحاجيات الاولى ... التبعية اذن لم تعد تبعية سياسية صناعية اقتصادية فقط بل ايضا تبعية غذائية حيوية ،

اذا وصلنا مشكلة الغذاء وصلنا مشكلة كل شيء .

نقطة أخرى ان دخول الآلة للحياة اليومية للمجتمعات الاسلامية لم يكن فيما مضى ولن يكون أبدا بمعزل عن عقلية وتقاليد الشعوب التى أنتجتها . عندما نستورد الآلة نستوردها وبالمنظور الذى أنتجت له ، وهل أنتجت لمنظور على مقياسنا أو على حسب أخلاقياتنا ؟ طبعالا ، فضلا عن الغزو اللغوى الذى يصاحب كل آلة الذى يزداد تمكنا من حيث لانحسب ويتقوى الغزو الفكرى الذى يتبلور فى تطور جذرى للبنيات المجتمعية فكرا وعادات وأخلاقا وهذا افضى ويفضى الى بلبلة فى الأعماق واضطراب فى الهوية أذكر على سبيل المثال لا على سبيل الحصر قضية قد تعتبر بسيطة بالنسبة لنا وهى اقتناء التلفزة والفيديو ، هذا الاقتناء يحتم أن نقتنى معه أفلاما غربية ، عندما نشترى فيديو نشترى أشرطة والاشرطة هذه هل هى من انتاجنا هل هى تعبر عن ذاتنا . كما نعلم هذه الافلام وليدة بيئة غير بيئة اسلامية ولأهداف بعيدة عن أن يكون لها بمبادىء الاسلام أى اتصال ، جلها أفلام تعكس حياة عصابات القتل وفساد الاخلاق وغير ذلك .. إن الانسان أصبح جرثومة ، أصبح لاشىء أصبح حيوانا يقتل ويداس وينكل به ويعذب فى العواصم العالمية ، اذن اين ما دعى اليه القرآن « **ولقد كرمنا بنى آدم** » لاشىء ، يعنى هذه الأفلام تعمل على احياء العصر الجاهلى الذى جاء الاسلام ليقضى عليه لبناء أمة تسودها المحبة والعدل والمساواة ، أين هذا من تلك الأفلام ؟ هم يعبرون عن بيئتهم وعن أوضاعهم وفى تلك امانة بالنسبة إليهم لتصوير تلك البيئة فى وضعها الحالى لانهم يعيشون هذه الاوضاع المخزية ..

لكن أى عذر لنا نحن الدول الاسلامية فى أن نشترى هذه الافلام نقدمها بثمن غال لأجيالنا الصاعدة ونحن نعلم أن الشباب لم يكتمل قواه الفكرية ولاقواعده السلوكية قد يقال اذن لنقاطع الأفلام الغربية الامريكية وغيرها .. أقول ان المشكلة ليست أقل خطورة حتى بالنسبة لما ينتج من الافلام فى البلدان العربية على العموم ، هناك استثناءات ، لايخرج عن تقليد الغرب وعن تقليد البيئة الغربية والاشادة بها فى اتصالات الجنسين وفى العلاقات ، وفى كذا اوكذا بدعوى التمدن أو التقدم ، يبقى المشكل مراقبة الافلام . لقد أصيبت الدول الاسلامية بدوران جعلها تتأرجح بين عقلية غربية أمريكية وبين عقلية وتقاليد وعادات أصيلة فانعكست عواقب هذا التأرجح على مختلف طبقات المجتمع قادة ومفكرين وشعوبا .

لقد لعبت الحركة الاصلاحية قديما دورا كبيرا حين دعت الى التصنيع وأن له مزايا وبأنه يجب الايرفض بتاتا ولكن الى جانب ذلك حذرت ورغبت فى أن تكون الامة الاسلامية مشاركة فى عملية الانتاج وعملية الاقتناء والاختيار لماياسبها . يجب أن نفرق بين اقتناء الاجهزة وبين الجوانب السلبية فى الحضارة الغربية ، يجب ان نقتنى هذه الادوات ولكن نفرق بين الآلات وبين المساوىء والمضار التى قد تنتج عنها ، أن نفرق بين اقتناء الاجهزة التقنية وبين الجانب السلبى للحضارة الغربية والذوبان فى الوجهة المادية ، التقدم الحضارى ليس شيئا جديدا بدليل أنه استطاع أن يتكيف ويستفيد ويأخذ من حضارات عريقة فيما مضى ويستفيد من محتوياتها الفكرية والمجتمعية إبان عصور ازدهار المسلمين ما الذى حصل اليوم ؟ حصل عجز المسلمين عن مساهمة فعلية فى الخلق والابتكار

والاندماج فى المعطيات الفكرية الحديثة بنوع من التبلور الثقافى الروحى الذى يعمل على الاحتفاظ بالكيان الاسلامى بعيدا عن كل الهزات . لعل ذلك يعكس نظرة المسلمين إلى أنفسهم ، لعله جاء من نظرة دونية ، نظرة تنقيصية التى بثهافينا الاستعمار حيث اقتنعنا واقنعنا بتخلفنا فانعكس فى السلوك والاعمال والتخبطات السياسية والتهاون فيما علينا من واجبات ، هذه الواجبات تتطلب أساسا قبض زمام أمورنا الدينية بتأن مع زمام الاقتصاد والسياسة لدخول عصر التصنيع . قد يقال إن اهتمام الهيئات الحكومية فى مختلف الاقطار الاسلامية على خلق أجهزة وأطر ترعى الشؤن الدينية خير دليل على ماتعيره الدول الاسلامية من كبير العناية للحفاظ على نشر الاسلام .. نجيب ، صحيح هذه الأطر مشكورة حقا على ما تبذله من جهد فى القيام بمسؤلياتها فى خلق الوعى الدينى داخل بلدانها وخارجها ، لكن التساؤل الذى وقع هو إلى أى مدى استطاعت أو تستطيع أن تنشر الوعى بماتستدعيه ظروف الحياة المستجده ؟ هناك اسلام وهناك حياة وكان ينبغى ان لاينفصل واحد منهما عن الثانى ومن الممكن خلق انسجام بين بيئات الاسلام التى لها أصولها الثابتة وأخلاقياتها المتميزة السامية وبين ماتمده حضارة التصنيع من الوسائل لوتم التنسيق بين هذه الاطر ، أقول لو استطاعت أن تعمل هذه الاطر المخصصة لنشر الوعى والتشبث بالدين مع مختلف القطاعات الأخرى ثقافية واجتماعية واقتصادية فى تناسق وانسجام بدل ما هو قائم بينها لاستقام الامر ، ولكن ماهو قائم بينهـا هو انفصام الرؤى حيث يبقى فى غالب الاحيان القطاع المسؤل عن الشئون الدينية فى منأى عما يجرى وماتخططه بقية القطاعـات الأخرى ، هـذا فى واد والآخر ى واد ، فمـاذا يحدث ؟ يهدم قطاع السياحة والدفاع العسكرى مايبنيه قطاع الشئون الدينية .. هكذا كل يعمل على شاكلته وكأنما يعمل القطاعان من أجل مجتمعين مختلفين لاترتبط بينهما أية أواصر أو تكامل المصلحة العليا ، مصلحة الامة التى لاصلاح لها الابتوازن الكفتين ، إن التخطيط لكل قطاع بانعزال عن قطاع آخر هو عين ماقد يوصل الى الكارثة ، كارثة تواجد هياكل المفروض أن تكون متكاملة ، عقليات ووجهات نظر تعمل فى اتجاهات متباينـة ينقصها التطبيق بقيام التوازن المطلوب بل اخطر من ذلك هو النظرة التنقيصية التى تحدثت عنها والتى يلبسها بعض الشباب لباسا جميلا حيث يعيرون نظرة تنقيصية الى بعض المسؤولين عن قطاعات دينية ، بعض المسؤلين فى القطاع الاقتصادى والتكنولوجى يعتبر القطاع الدينى قطاعا رجعيا ، هنا تزداد الشقة أو يزداد الصراع داخل المجتمع بل أحيانا يرى بعضهم ان النشاطات فى مجالات دينية هى ديماغوجية .

إن مواجهة المسلمين للحضارة المعاصرة غالبا ماقادت وتقـود الى توتـر بين القيم الاسلامية وبين انجازات التقنية التى انتصرت على حساب الاولى لدى فئة كبيرة . فى الواقع انه ليس ظهور المعرفة التقنية هو المسؤل ، المعرفة التقنية لابد منها ، ليست هى المسؤل عما يعيشه بعض المختصين التقنيين والمثقفين الشباب عموما من انحراف عن القيم الاسلامية وانما المسؤل الاول هو الانجراف مع حضارة التصنيع ودخول عصر لم تتهيأ الدول الاسلامية لدخوله وليس لها من السلاح المعنوى ولا السلاح المـادى ما يؤهلها لدخول معركة أصعب من معركـة التحرر السيـاسى ، إذا كانت التقنيـة نتاج

حضارة علمانية ، ليست متدينة واذا كانت جميع الشعوب تراها ضرورية للتحرر الاقتصادى والسياسى كان طبيعيا أن تنتشر الاخلاقيات التى تعيشها الدول المنتجة المصنعة للتقنية على تعارضها مع القيم الاسلامية . ان المجتمع الاسلامى يعانى هول الشقة مابين التخلف الذى يفصله عن المجتمعات الصناعية من جهة ، نعانى من التخلف ، ونعانى من اقتصاديات متخلفة وصناعة متخلفة وحضور عالمى متخلف ، ومن جهة أخرى ، نعى بأن لنا ارثا حضاريا أخلاقيا علينا واجب الحفاظ عليه .. هذه مفارقة ، أزمة ، إن المجتمع الاسلامى يعانى هول الشقة التى تفصله عن المجتمعات المصنعة هذه المجتمعات المصنعة لاتسمح بالاستفادة من معطياتها دون أن يتنازل الكثير عن أخلاقياته ، الدول المصنعة حينما تبيعنا أو حينما تمكننا من صناعاتها يكون ذلك بشروط وقيود على حساب أخلاقياتنا وعلى حساب وجودنا كأمة . وفرق كبير بين

وضع المسلمين فى الأمس البعيد ، أمس الانتصارات على كبريات الامبراطوريات وبينما عليه اليوم ، كان المسلمون أمس فى موقف قوى أمام حضارات انهزم أصحابها ازاء عظمة الاسلام ، ونحن اليوم نجتاز عقدة التخلف الحضارى المادى فلم يعد معه أصحاب القيادة يخططون للحاضر ولا للمستقبل الا على ضوء مايقلل أو يخفف من وطأة هذا التخلف الاقتصادى والتصنيع وعلى ضوء مايوفر أسباب الرغد الدنيوى الذى أصبح الشاغل الوحيد للجميع ، سيطر على اهتمام الافراد والجماعات وصدهم عن مكارم الأخلاق فاصبحت الاخوة والاخاء والتضحية والثواب وتبادل الاحسان بين الأقارب والجيران كل هذه القيم أصبحت فى بعض المجتمعات الاسلامية شيئا من الماضى فى خبر كان ، وأصبحنا نجسد قولا وعملا المجتمع الذى « من لايظلم الناس يظلم » ـ هذا هو الواقع ، إن الشروع فى الكسب المادى لاقتناء كل مايوفره التصنيع والانجراف مع تيار مواكبة التجديد فى معطيات الصناعات الحديثة بما يفوق ويتجاوز مدخول الفرد وهذا جر الى حب النفس وإذكاء الغريزة العدوانية لدى الافراد لم يعد هناك للقيم والأخلاقيات اى قيمة ، أصبح الشغل الشاغل النهب والرغبة المفرطة على اقتناء الآلة لا لاستخدام الآلة والا ستفادة منها وانما للتباهى والتظاهر بتملكها ولاشباع غرائز الشهوة فى الحصول عليها وأصبح ينسى الاثرياء حقوق الفقراء وواجباتهم نحوهم وكان لذلك عواقب وخيمة على بيئة المجتمع الكبير والمجتمع الصغير اى الأسرة ، مثلا كان يتعايش فى الاسرة الأب والأم والأبناء والزيجات والحفدة وأبناء العم والخال ومن باعد بهم الزمان عن تكوين أسرة ، عمة او خالة .. لم تتزوج وليس لها مدخول فتبقى داخل الأسرة وكذلك المرضى والعجزة الذين ليس لهم القوت اليومى أما اليوم فها نحن نخطط وننشىء دورا للعجزة على شاكلة أوربا . لقد تفككت الأسر الكبيرة لتصبح أسرا صغيرة ولم يعد لروابط الدم وصلة الرحم من القوة مايوفر الرعاية التى حث عليها الاسلام وما ذلك الا من جراء التفانى فى اقتناء اللذة الحسية والمادية ومن اللذة على توفير مايمكن من الحصول على أحدث أنواع الآليات ولايهم فى سبيل الحصول على هذه الآليات أن تستباح

السرقة والرشوة وتبتز أموال الدولة وتنتهك حقوق المواطنين ، لقد تساوى من أجل ذلك مفهوم الفضيلة والرذيلة ولم يعد بينهما تضاد ، ولاقت نفس المصير كثير من المفاهيم من حلال وحرام ، تضحية وأمانة وهلم جرا ، والانكى من ذلك أننا نجد ممن أصيب بداء التهافت على تملك اكثر مايتوفر من الصناعات الحديثة ويقعون فى دوامة تشدهم الى مزيد من اقتناء لذة متجددة ان الآلة فى المجتمعات التى صنعتها تخدم الأفراد والجماعات وتوفر سعادتهم وتضمن لهم الراحة والتثقيف وفى بلداننا اكثر مانجرى وراءها بدافع الموضة ولو على حساب ضرورياتنا . فبدل أن تكون عنصرا يسهل ممارسة الحياة أصبحت سببا فى تعقيد المعاملات وفسادها وكم من أسرة تقوضت بسبب الصراع الدائم بين الزوج والزوجة حول قضايا مالية .. لقد أفضى ذلك الى انتشار الطلاق والتحلل من الزواج كما أفضى الى تشرد الشبان والشابات والى قضايا أخلاقية أنا فى غنى عن شرحها .. إذن ان الانشداد الى هذه المكتسبات ، مكتسبات الصناعات الحديثة ، والانشداد فى نفس الوقت الى بعض التقاليد المجمدة لا التقاليد الفنية الأخلاقية .. نحن نعيش فى تعقل وقد نأخذ من الغرب ومالنا من تقاليدنا القديمة التى قد نستغنى عنها فى أخلاقياتنا الحديثة نحن نعيش بين توترات بين حديث وقديم مجمد لاقديم حى .. تقاليد وعقلية متزعزعة بين الطرفين ..

لاينتظر من الاسرة التى على هذه الشاكلة ـ الأسرة المتزعزعة ـ أن تكون مرتعا خصبا وصحيا لترعرع جيل أفضل . إن وضعا كهذا يلقى باسقاطاته فى المدرسة والادارة والجامعة والشارع والمعمل فى كل مرافق الحياة فيزداد الانحراف وتنتشر الحالات المرضية الجنسية والنفسية وبين هذا وذاك يتلاشى ويضيع مفهوم الأسرة كما ضاع فى أوربا ..

أعود مرة أخرى وأوكد أن لانقاش فى أن للتقنية ايجابيات كثيرة وهى ايجابيات لاتحصى وبفضلها نحن اليوم هنا مجتمعين بما استطاعت أن تحققه وسائل الاعلام السلكية واللاسلكية من نشر المعرفة والعلم واللغة وتقارب الأمم والتعاون بين الشعوب والدول ولم يبق لطول المسافة مع معطيات التكنولوجيا الحديثة حاجز لتسرب المعرفة وتسرب الوعى يقطع بين ابناء البشرية من أقصى المعمورة الى أقصاها ولكن للأسف بقدر ماتتطور وسائل الاتصال بقدر ماينمو القهر على مستوى الأفراد وعلى مستوى الأمم ويبقى الفوز للأقوى وخلقت التكنولوجيا فى مجتمعاتنا بالذات تشكيلة من نوع جديد ضاعفت قوة القوى وقوت ضعف الضعيف . تربو رؤوس اموال الأغنياء وتضيع فرص العيش والكسب على من لا رأس مال له بقدر ماتتيح الفرص للبعض فى أن يتمتع بملاذ الدنيا بقدر ماتجعل البعض الآخر يعض على الناجذ من جراء حرمانه وتستفزه الفوارق والأوضاع التى تسود يوما بعد يوم ويبقى المستضعفون فى واد وغيرهم فى واد آخر حتى اذا ما استطعنا فى بعض الدول القضاء على رؤوس الاموال ظاهريا يبقى التهريب والديماجوجية يعمل عمله التخريبى فلا نسلم لأنه لارقيب من الغير ان لم يكن رقيبا ذاتيا داخليا .. الرقيب الذاتى رقيب الأمانة والضمير أقوى من رقابة أى نظام .

إن التصنيع فى الأوساط الواعية المثقفة غيره فى الاوساط غير المثقفة فاذا رأت فيه الطبقة الواعية المثقفة المتفتحة فى التصنيع وسائل ترفيه والمعرفة وجدت فيه الطبقة الثانية أى غير المثقفة وسائل ترفيه مستحدثة لاأكثر واذا استغلته الطبقة المثقفة فى عملية الخلق والابداع واذا كان التصنيع يوفر لبعض الناس وسيلة لتزكية وتنمية أعمالهم الثقافية فبالنسبة للآخرين لايزيد عن أن يكون اداة لهو وأداة ترفيه ، وهذا خطأ ، إذا كانت الآلة بالنسبة للطائفة المثقفة وسيلة للتفكير والخلق والتأمل كانت للطائفة الأخرى وسيلة قتل الوقت فتكون الطبقة الثانية مستهلكة مهلكة وتزداد الفجوة مابين الطبقتين فعقلية هؤلاء تختلف ونمط العيش عند هؤلاء ، ليس هو عند الثانية كلما تزداد الروابط بين الطبقات توترا يصبح يغذيها الحقد والحسد والضغينة، والواقع أنه قد تبدو اشكالية ، مفارقة ، أن نقول ان معالجة موضوع مشاكل مجتمعنا السلوكية المتولدة من التصنيع تلتزم الانطلاق من تحليل علاقة تفاعل كامل بين التكنولوجيا والمكان والزمان الذى وجدت فيه من جهة وانعكاسات التكنولوجيا فى بيئات غير منتجة من جهة ثانية ...

ان هذه العناصر المتداخلة ، العناصر الجدلية ، هى فاعلة ومنفعلة سلبا او ايجابا حسب قوة كل عنصر ، اذا كان المجتمع قويا وله مبادىء أخلاقية وروحية سوف لايخاف من التكنولوجيا بل عليه أن يسارع فى احداثها وان لايتأخر . اننا بقدر ما ندعو الى تبنى التصنيع والتكنولوجيا ندعو الى الوعي والاتزان فى تسخيره ، فى استغلاله ، فى كيفية ادماجها داخل حياتنا المجتمعية . فعليه ، التفاعل يتميز بين التكنولوجيا والبيئة المستوردة أو التكنولوجيا والبيئة المنتجة ، عبارة عن شبكة من تفاعلات متآنية تشترك فيها كل الأطراف .

إن حدة المشاكل المجتمعية والسلوكية هذه تزداد خطورة على ابناء المسلمين الذين يعيشون خارج بلادهم أريد بهؤلاء المهاجرين الى أوربا ، هؤلاء يبيعون سواعدهم مقابل قوتهم اليومى ، وهم بالاضافة الى مايعانونه من أزمات الابتعاد عن الوطن يعانون الأمرين ، التهديد بارجاعهم الى أوطانهم ، التهديد بالاندماج ، التهديد بالتمزق ، مشاكلهم معقدة اكثر فاكثر مشاكلهم المجتمعية والدينية تزداد يوما بعد يوم . إن مشاكل هؤلاء لما يستدعى مواقف حازمة تتحمل مسؤوليتها كل الدول الاسلامية .

وأنهى وأقول : هل يستطيع المجتمع الاسلامى أن يقرر ويريد وله القدرة على أن تظل له القيم الاسلامية طريقا ومذهبا سياسيا ، هل يستطيع أن يتبنى مكتسبات التصنيع دون أن يفقد طابعه المميز ؟ بكل تأكيد نعم ولكن لن يتم ذلك دون شروط مسبقة وعلى رأسها اعادة الاعتبار للروابط المتينة التى توجد فى الأوامر الدينية المتمثلة فى الفرائض والأحكام والأخلاقيات التى لاتتغير ، وهناك الجانب الآخر جانب المعاملات اليومية القابل للتكيف يجب أن نخطط فى ضوء مجموعتين ، مجموعة ثابتة لاتتغير ، ومجموعة المعاملات والسلوك لاتمس بالجوهر الاسلامى ، يجب أن نتكيف ، فبالتوازن والترابط المتين بين الناحيتين قولا وعملا نشيد الحصن الحصين من كل الهزات الداخلية التى فينا والدخيلة علينا ونسلم من كبوة الوقوع فى التمييز المادى عن الروح والأخلاق . علينا فى اقتناء المادة

واقتناء الآلة علينا أن نزاول هذين الطرفين ، أن نمازج بينهما أن نربط بينهما أن نعمل بالحديث الشريف :(اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كانك تموت غدا) ، رقيب ذاتى قبل أن يكون هناك رقيب أعلى ادارى أو غيره . إن الاعراض عن اطار حياة عتيقة وضغوط تقليدية مجمدة بعيدة عن الاسلام ، تخشى تقنية ، وكذا ان دخول معركة حياة مستحدثة ضرورتان لابد منهما . وهكذا يتم التحول من وضعية الى وضعية دون انهيار للمبادىء الأخلاقية والاسلامية من جراء الاصطدام بنمط جديد لحياة مادية . لابد أن تتم عملية اندماج مادى حديث بالأخلاق الأصيلة فى تكامل وانسجام . ولعل مايضمن العبور بسلام الى شاطىء السلام هو تجديد القوى بالايمان بالله ايمانا مطلقا فى نفوسنا والتحلى بآداب الاسلام وأخلاقه فى معاملاتنا والحفاظ على هويتنا متميزة غير ضعيفة . متى استطعنا أن نجد الأمة الاسلامية القادرة على الوقوف على مكامن حساسة فكريا ودينيا وثقافيا واقتصاديا وسياسيا وتقنيا بعملية التحليل والنقد والتخطيط للمستقبل البعيد . متى استطعنا أن ننطلق من هذا المبدأ فى جميع أعمالنا عدنا إلى الموقف الذى نملك فيه زمام نفسنا بأنفسنا واستعملنا التفكير والتخطيط لسياساتنا المدنية والعسكرية وتلافينا الاتجاهات العشوائية والتبعية فى اتخاذ القرارات على مستوانا كدول اسلامية فيما بيننا أو فى مواجهة دول أخرى غير المسلمة تجند طاقاتها لتهديد وحدة الدول الاسلامية .

ثانيا : يجب أن نوقن بأن اقتناء الآلة ، استعمال الآلة ليس لذات الآلة وانما يجب ان يكون على ضوء ماتعطيه من مردوديات أخلاقية ومادية غير متناقضتين ، فالتقنية شىء مفيد فى نطاق الطبيعة ، خلقت للسيطرة على الطبيعة ، ولكن اذا أصبح الانسان عبدا لها تصبح شوكا على الصعيد الأخلاقى والاقتصادى ، فلابد اذن من السيطرة على مواقفنا .

وأخيرا أقول أننا ازاء تبنى تقنية تنتمى الى دول عظمى فعلينا أن لانذوب فى هذه الدول ذات التصنيع وواجبنا لاينحصر فقط فى انتشال أنفسنا كدول اسلامية بل واجبنا يمتد الى أن يكون شموليا فى انقاذ الانسانية وتلك رسالة الاسلام وتلك مهمة جسيمة تستلزم التجند داخل المعاهد والمعامل والمستشفيات والصحارى والقفار والتجند بالخروج من العواطف وعدم الاقتصار على صعود المنابر للتوعية ونشر الاسلام وذاك أعتقد دوركم حاضرا ومستقبلا والله الموفق .